الإحتفالات في المدينة والنظام (الإجتماعي- الإقتصادي) في عصر العولمة  
  
حالة "كارنفال" لندن السنوي  
  
د. وليد أحمد السيد  
معماري وأكاديمي – مدير مجموعة لونارد بلندن  
sayedw03@yahoo.co.uk  
  
تشكل ظاهرة "الإحتفالات" في المدينة عبر التاريخ حدثا إجتماعيا يتساوق والأنماط والمنظومات والعادات والتقاليد الإجتماعية السائدة في المجتمعات البشرية, والتي كرستها العمارة والتخطيط العمراني كفن إنساني ذي أبعاد اجتماعية واقتصادية, وسياسية. فالمدينة الإنسانية كمنتج عمراني وتخطيطي كانت دوما الحاضنة الثقافية والحضارية للتعبير عن منتجات المجتمعات من عادات وتقاليد وتراثات وأنماط سلوكية من ناحية, وللتعبير عن متطلباتها والتفاعل ضمنها وإنتاج الفنون والفولكلور والتراث المجتمعي للشعوب كل على شاكلته. وبالرغم من التباينات الثقافية بين الأمم والشعوب إلا أن الحاجة للفضاءات الحضرية في المدينة لممارسة العادات والطقوس والإحتفالات الموسمية كانت وتظل قائمة بصرف النظر عن المكان أو الزمان أو أية خصوصية أخرى. فالقاسم المشترك كان دوما هو التفاعل المجتمعي الموسمي, والإختلاف هو المكان وطرائق التعبير.  
  
وتعود فكرة الإحتفالات المدينية بأوروبا إلى عصور وثنية قديمة جدا حيث كان يتم ارتداء الأقنعة على الوجوه في الإحتفالات السنوية في إسبانيا وألمانيا. وغالبا ما شهدت المدن الكاثوليكية الأوروبية في برد الشتاء وجوها الغائم لتزين مدنها بزينة الإحتفالات وبهاء الأزياء التي يتم ارتداؤها. ومن أشهر الإحتفالات والمهرجانات السنوية في بريطانيا هو مهرجان (Notting Hill Carnival) الذي يقام كل صيف في المنطقة من لندن والتي يحمل المهرجان اسمها حيث يشارك أكثر من مليون شخص في شوارع منطقة (Notting Hill) التعبير عن فرح الزنوج وارتداء الملابس الزاهية. وقد بدأ الإحتفال في العام 1967 عندما بدأ أحد العمال الزنوج في لندن بإثارة هذه الفكرة من أجل تقارب الفئات الإجتماعية بالمدينة مع ثقافة الأقليات من السود أو الزنوج من أصول أفريقية. وتصدح منذئذ في شوارع لندن الغربية موسيقى راقصة خاصة بالزنوج وجنوب أمريكا اللاتينية مثل موسيقى (reggae) أو (calypso) وترقص خلالها رقصات مثل السامبا. ومن المهرجانات الغريبة مهرجان (ريو دجنيرو) بالبرازيل والذي يقام لأربعة أيام في شهر شباط من كل عام, والذي بدأ منذ العام 1852 وهو من أشهر مهرجانات العالم حيث يغلق المحتفلون شوارع المدينة طيلة الأيام الأربعة وهم يرقصون ويرتدون الأزياء الزاهية والبراقة.  
  
وفي هذا الإطار, وعلى المستوى التنظيري العام, يلاحظ المتأمل في ظواهر الإحتفالات المجتمعية أنها عبّرت "بعفوية" عن مشاعر وتقاليد وعادات وأزياء مجتمعية تشترك فيها فئات المجتمع بمختلف أصولهم في "عيد" جماعي هادر كأمواج السيل. وهذه العفوية لا تقتصر فقط على "الحدث الإجتماعي" ذاته, بل تشمل الطبيعة التركيبية للحيز الفراغي الذي تتم فيه هذه الإحتفالات الموسمية. فالمهرجانات الإحتفالية الناجحة والمعروفة عالميا كانت تقام في طرقات المدينة بعفوية مطلقة.  
  
وفي مقابل هذه الحالات السنوية الناجحة التي تقام بتوقيت ملتزم ومضبوط, تكاد المجتمعات العربية على مدار الوطن العربي تخلو من هذه "الإحتفالات" المجتمعية على مستوى المدينة والتي تعبر عن ماضي وحاضر الأمة, ما خلا حالات نادرة لا تعدو عشرات الأشخاص في مسيرة أقرب "للمظاهرة" منها للإحتفالات المجتمعية. فمثلا شهد كاتب هذه السطور في مطلع التسعينيات بمدينة القاهرة مسيرة لفئات من المجتمع المصري احتفالا "بالمولد" في شوارع القاهرة الفاطمية وهو حدث موسمي تسير فيه جموع المشاركين بالأعلام الملونة والأزياء الفولكلورية بما يشكل "حدثا" فريدا لندرته في العواصم العربية التي تكاد تخلو من "تنفيسات" المجتمع عن أفراحه, فضلا عن تعبيره عن ثقافته وعاداته وأعياده.  
  
وفي هذا الإطار, تحضرني حالة مدينة عمّان بالأردن, حيث استدعيت قبل ثلاث سنوات كمستشار مزدوج لجهة أردنية تعنى بالتطوير الحضري ومكتب استشاري بريطاني, وقدت فريق تصميم مصغر في مشروع تطوير وسط المدينة التاريخي الممتد من المدرج الروماني امتدادا للمحطة, وتضمن المشروع بالإضافة للساحة الهاشمية والمدرج الروماني القائمين أصلا اقتراحا لإقامة "ساحة احتفالية" أو (Concert Plaza) وفعاليات حضرية أخرى منها قاعة رسمية للمؤتمرات وغيرها. وبرأيي المتواضع أن الساحة الثانية المقترحة "والمسوّرة" لن تضيف الكثير للواقع التاريخي المحلي الموجود أصلا – أو على المستوى الشعبي "الإحتفالي" على الأقل. فالإحتفالات في المدينة هي "ظاهرة عفوية" تصنعها المجتمعات الشعبية المحلية وتفرض هي المكان والزمان والعادات والأزياء ومتطلبات "الحدث الإجتماعي" ولا تفرض عليها فرضا أو تسقط إسقاطا. وبالرغم من الجهود المشكورة والمتميزة لأمانة عمان وصانع القرار السياسي الأردني في توفير "حاضنة" التفاعل الإجتماعي, إلا أن هذه التفاعلات الإجتماعية تظل حصريا تعبيرا "عفويا" طبيعيا لمرتادي المكان. والتجربة المجاورة بالساحة الهاشمية أو المدرج الروماني عكست ومنذ مطلع التسعينيات "فشلا ذريعا" في جذب أكثر من عابري السبيل من وسط البلد إلى مجمع النقليات, فضلا عن عدم ملائمة هذه الساحة والفضاء الهائل لجذب المجتمعات العمّانية ذات الطبيعة العائلية المحافظة لهذه الساحة التي ترتادها فئات مجتمعية من الشباب. ولذلك يمكن للمتأمل والمتبصر والخبير بطبيعة التخطيط والتصميم الحضري تنبؤ ما ستعانيه "الساحة الإحتفالية" المقترحة من هجر والتي ستجاور ساحة لا ترتادها فئات كثيرة من المجتمع – رغم أهمية الموقع التاريخية – ومدرج روماني يكاد يكون مغلقا إلا للسياحة! ولذلك فالمنهجية التي ينبغي أن تتبعها الجهات المختصة في التصميم والتخطيط الحضري تبدأ وتنتهي بالمستخدم والمستفيد وهم الفئات الشعبية – والطريق الوحيدة لذلك هي من القاعدة باتجاه رأس الهرم حيث القرار وصانعه وليس العكس, بمعنى ضرورة "تحفيز – وليس فرض" المشاركة المجتمعية تدريجيا وإعادة قراءة التجارب الجزئية وتطويرها تجاه المزيد, وما عدا ذلك سيكون مجرد تخصيص ميزانيات في مشروعات تخدم أطرا أخرى ليس أحدها المجتمع المحلي. وفي هذه المساحة المحدودة سنعرض لماما بعض التجارب العالمية الرائدة تمثلها حالة الإحتفالات بمدينة لندن وعلاقتها بالنظام الإجتماعي والحياتي, فضلا عن ارتباطاتها الثقافية.  
فمن أبرز حالات المشاركة المجتمعية في بناء وتطوير الواقع المحلي وكيف تتبلور المشروعات الحضرية طبيعيا بناء على توصيات من قاعدة الهرم الشعبية ما شهدته مدينة لندن من تشكيل ما عرف آنئذ "بجمعية المواطنين". فقد شهدت بداية السبعينيات نشأة ما سمي "بجمعية المواطنين" في بريطانيا وذلك على غرار حالة شهيرة مؤسفة وقعت في قلب العاصمة لندن. ففي منطقة (Notting Hill) في غرب وسط لندن ونظرا لازدحام البيوت وتراصها نظرا للتخطيط الرأسمالي فقد أضطر الصبية للعب الكرة في الحي الذي يقيمون به في وسط الشارع مما أدى لدهس اثنين منهم من قبل سيارة مسرعة لاذ سائقها بالفرار, عدا عن مجموعة حوادث سير مشابهة أخذت تتزايد. هذه الحوادث دعت أهل الحي لإتخاذ قرار بالإستيلاء على أرض فارغة مجاورة كانت تعود لأحد أصحاب التطوير العقاري وتحويلها إلى منتزه للحي يلعب فيه الأطفال بالكرة. وتشكلت جمعية للحي قامت بتطوير بعض العقارات القديمة وتحويلها إلى مقهى للحي وحضانة ومراكز تدريب, مما أعلن عن روح جديدة للحي تضامن فيها السكان لما فيه مصلحتهم.   
  
هذه التطورات التي كانت تتم بملازمة لصيقة وقراءة لاحتياجات, بل "وإملاءات" من المجتمع والواقع المحلي, كان يصاحبها رقابة لصيقة وعين متبصرة ومفتوحة لما يجري من قبل صانع القرار وعلى أعلى المستويات. فنجد أن الأمير تشارلز, والمعروف باهتماماته الشخصية بالعمارة والتصميم الحضري, يصرح في كتابه (A vision for Britain) عام 1989 بقوله:" حان الوقت لعدة تجارب فيما يتعلق بالطريقة التي نخطط فيها ونبني ونملك مجتمعاتنا الحضرية. فعلى سبيل المثال تبرز الحاجة لمبادرات جديدة لمحاولة إيجاد حلول تضمن أن محيطنا الحضري والمحلي ليس مفرطا فيه على حساب السيارة". وهو ما يعكس رؤية ثاقبة لصانع القرار المحلي وانعكاسا واستجابة لمتطلبات الواقع واحتياجات المجتمع المحلي والقاعدة الشعبية, فضلا عن إدراك تطورات الوقت والمرحلة. وهي رؤية استراتيجية تتعلق بحيز السيارة كمدخل تكنولوجي في بلد صناعي واحترام حيز المشاة وبخاصة في مناطق الوسط التاريخي. ومن هنا فقد كانت إعادة قراءة ميدان شهير بوسط لندن هو "ترافالغار سكوير" وتحويل قسم كبير منه إلى مناطق مشاة – والذي ساهم كاتب هذه السطور في دراسة ميدانية جزئية به في العام 2003 مع مكتب استشاري بريطاني متخصص, هي من أبجديات مراجعة العلاقات المختلفة بين مستخدمي المكان الحضري تبعا لمتطلبات المرحلة وبما يخدم الإستعمال الأمثل للمكان.  
  
ما يلاحظ في العالم العربي عموما, وهي من واقع قراءات متعددة للكاتب لأكثر من عاصمة عربية, هي انعزالية صنع القرار السياسي عن واقع المجتمع المحلي, والأنكى هو إهمال نوعية الشرائح الإجتماعية المستفيدة من المشروع الحضري وموقعها على المقياس الإقتصادي. فوسط المدن العربية التاريخي حين يتم إهماله كذاكرة اجتماعية لأجيال وشرائح واسعة مجتمعية مختلفة الأعراق, بإحلال مشروعات تتميز بالحداثة من جهة وببرامج لا تسمح بطبيعتها إلا بارتيادها من قبل النخبة لا من العامة, تعني أن هذه المشروعات "تهمّش" الأغلبية في أحسن الأحوال, أو تضع فوارق طبقية اجتماعية مستندة لمرجعيات وإرهاصات إقتصادية في وجوه شريحة واسعة كان يمكن أن تثري التجربة المكانية لو أحسن السياسي والمخطط الحضري تحديد البرامج المطروحة لاستعمالات المكان.   
  
فمن أولويات وأبجديات التصميم الحضري للوسط التاريخي لأية مدينة – وهو ما أظهرته العديد من التجارب الناجحة العالمية – هي تحديد مجال حركة السيارة وفصلها تماما عن المشاة ليتسنى للبشر استخدام المكان وإثراء التجربة الإجتماعية فيه. وفي الوقت الذي تطرح فيه مشاريع تطوير حضرية بمدن لها ذاكرة وبعد تاريخي, يتم إهمال معالجة حركة السيارات, وتترك منطقة الدراسة "كجزيرة" عائمة محاطة بشوارع تجوبها سيارات بسرعة عالية, مما يوحي مسبقا بمدى الفشل الذي سيعانيه أي مشروع يطرح في وسط هذه "الجزيرة" الحضرية. يضاف لذلك أن أي مشروع لا يمكن لأبسط مواطن أن يتجول فيه بحرية ودون "أسوار" أو إجراءات أمنية عالية نظرا لطبيعة برنامجه وتصميمه فذلك يعني "فشلا مسبقا" ولاحقا أيضا. ولذلك فمن أبسط الحلول تحديد "تغول" السيارة داخل الوسط بإقصاء مجمعات النقليات لأطرافها البعيدة عن وسط المشروع الحضري والتاريخي, مع توفير وسائط نقل خفيفة كعربات "الكارو" شرقالآسيوية التي يجرها الآدميون – والتي انتشرت مؤخرا بوسط لندن وتشكل وسائط نقل "ممتعة" ومتميزة سياحيا ومحليا, أو توفير ترام أو قطار خفيف ذو سرعة محدودة جدا.  
  
ثلاثة عوامل أساسية تسهم في إنجاح أو إفشال أي مشروع تطوير حضري هي: ذاكرة المكان أو البعد التاريخي له, والبعد الإجتماعي وإدراك نوعية وطبيعة واحتياجات الشرائح الإجتماعية التي ستستخدمه وتثري خصائص المكان فيه, والثالث هو علاقة الموقع الحضري بالمحيط وتكاملية الأطراف مع الموقع. فذاكرة المكان تفرض وتملي نمطية معينة لآلية التصميم كأداة وكمحتوى, والناس تحدد وبشكل حصري وتدريجي كيفية وآلية وماهية النشاطات المقترحة. أما العنصر الثالث وهو الأهم فهو دراسة واعية لمحيط الموقع وأطرافه وما يحاذيه من حجر وشجر وبشر, مما له أبعد الأثر في تحديد الوصول للموقع, كما تفرض العلاقة الجدلية بين الموقع الحضري وما يلاصقه ويملي طبيعة المقترح والبرنامج الوظيفي, وما لا نهاية له من أبعاد عميقة تثري كل تفاصيلها, وما يمكن اقتراحه من أعمال ترميم وصيانه وتطوير وإحلال وملء للحيز الفراغي الحضري, تثري جميعا وسطا حضريا لمدينة ثرية أصلا بعمق تاريخها. أما أن يتم تجاوز ذلك كله فهذا إهمال وسوء تخطيط. وتبقى مجموعة من الأسئلة المهمة مطروحة برسم الإجابة على صانع القرار والمجتمعات المحلية سواء بسواء وهي: كيف يمكن اقتراح ساحات "احتفالية" بوسط مدينة ما في أية عاصمة عربية, ومعظم الأنظمة المعمول بها تمنع تجمع ثلاثة أشخاص في مكان عام دون إذن مسبق من البلدية؟ أليس حريا معالجة النظم السياسية وإطلاق حريات التعبير المجتمعي عن الأفراح والأتراح قبل إنشاء ساحات عامة ستتلظى بلهيب الشمس صيفا وبالبرد القارس شتاء إذ ستبقى خاوية من أي مظهر من مظاهر التعبير المجتمعي؟ ومن ناحية أخرى هل ثقافة "الإحتفالات" موجودة أصلا في المجتمعات العربية بعامة, أم أنها ترف وفجور ومجون لا مسوغ له كما تراه شرائح واسعة من المجتمعات التقليدية المحافظة التي تحفل بها عواصمنا العربية؟ وما هي "الإحتفالات" التي يمكن أن تقام وما لا يمكن أن تقام؟ الإجابات عن هذه الأسئلة وغيرها هي من أبجديات التصميم الحضري في العالم العربي قبل اقتراح أية خطط ومشاريع "احتفالية" تستنزف الموارد العامة وتضيف للتخبط التخطيطي الذي تعاني منه الكثير من مدن العالم العربي وبامتياز!  
  
وليد أحمد السيد  
لندن في 14 سبتمبر 2009